



من أشهر، قررت أني استنفدت مخزون الحزن عندي، ولم يبق مَنّي شيء لم أستهلكه، حتى لم أعد أعرف كيف أبكي. جُفّ البئر، وتمرّغت أياماً عدّة في السربر لا أريد أن أخرج منه، وسمعت كُـل الأغانى الحزينة، وتخيّلت كل السيناريوهات التراجيدية عن كيف سيكون المستقبل قائماً وباهتاً وقبلت أني هنا وأنتن هناك وقررت أن كُـل هذا مفيد للقضية وفلسطين. فكُلما نتخطى هذه الحدود وملتقى ونضحك ونغني، تصيح الحدود أصغر وأتفه مما اعتقدت، وصرت أحسب إنى سوف أجد الطريقة السحرية التي لم ينتبه لها أحد وأعود إلى رام الله أو نابلس مثلاً كأنى كنت دائماً منهاً وسوف تقطعن الحدود من حيفا وربما أنا يوماً ما، وسوف يكون لدينا يومياتنا التي حسب ما أفكر تعبت فيها السلطة والاحتلال ككومبارسات في الخلفية، وضمن تخيلاتى الكثيرة عن كيف أريد أن أكون في مكاني الطبيعي، أو كيف لا أريد أن أكون هنا.

لكن الحقيقة تقول إن الحدود حقيقية جداً، وإن الاحتلال لا يمكن له أن يكون في الخلفية ونحن نحلم بعودة فردية أو جماعية. الحقيقة تقول إنى أعود إلى بيروت وفي كُـل مرّة تضيق بي وينا. منذ سنة تقريباً، لم تعد كبيرة كما كنت أشعر، لم تعد متسامحة، لم تعد جميلة، وبالتأكيد لم تعد مدينتى. لا يوجد مكان لكُـل هذه السرديات والتفاصيل في بيروت. حالياً، أعوّل على انهيار الليرة، كمقدمة للإعلان عن ضرورة استغلال هذه الفُرصة لنهار نحن أيضاً.

هكذا بدأت حاجتى للانهيار، كنت أقود سيارتى على إيقاع السائقين في هذه المدينة المضحكة، حيث لا يمكن أبداً أن تحصل على ما تريد من دون توتر ما، شدّ ورخي، كل شيء في هذه المدينة هو معركة داخل معركة داخل ثقب أسود لا ينتهى، اضطررت إلى سماع شتائم السيدة السائقة التي أرادت أن أتراجع لها حتى تمرّ على تقاطع عكس وجهة السير المسموحة لها. تفتح شباكها وتلعن من أنجبتنى وشكلى وأخلاقى. يضحك شرطي السيّر ويوح لي "الناس جتت". أتابع سيرى، لتعتربنى موجة من الذنب التي تتحول بعد دقائق إلى موجة من الحزن العارم. لم أقصد أن أقول لها "يا حيوانة"، قصدت أن أقول لها إنى لم أعد أستطيع أن أتحمّل كُـل هذا العنف اليومي العادى. ربما لم يجف البئر، لكن لا مكان للحزن في بيروت، وما أفعل به وسط مدينة أدارت ظهرها لثلاث مُخيمّات على أطرافها وفي قلبها، بيروت لم تسمع، ولم ترّ ولن تتكلم. ترتطم هتافات أهل المُخيمّ بالجدار المحيط ببيوتهم ويرتد إليهم، موجات من الوحدة وموجات من الحزن، فيغرقوا في الصمت مُخيمّاً تلو الآخر.



كُل هذا الحزن في مدينة تحصل فيها الأشياء بِسرعة، ولا نجد الوقت كي نحزن ونحن نعدّ جثث النساء التي تنهمر من الشرفات لنرثيهن، مذهب كيف يمرّ الموت على هذه المدينة كأنه سحابة عابرة، انتظار مملّ في ترانزيت مطارات تسألُك أفكارك فيها إن كنت تريد العودة حقاً. كيف حصل كُـل هذا، كيف قضمنا السنين حتى تحولنا إلى أشباح مضحكة، نعيد التمسك بالمألوف فينا وبالآخرين وبالشوارع، كأننا لا نتغيّر، نعيد ترميم ذكرياتنا عن العيش في بيروت، لكنها حطامٌ مهملة لم تعد تصلح لأن تكون وطناً أو منفى. كنت أحسب لوقت طويل، أن لي شيء ما في هذه المدينة، أنها الأقرب إلى العيش داخل ما أتخيله في شوارع وطن للحقيقة لا أعرف عنه شيئاً، سوى كيف بنيت في رأسي، وأنا أستعير قصص أبي أحياناً أو أصنع من رغباتي أحياء ومواقف وقصص وإصلاحات وحب وعداوات سياسية. ليتضح أنها أقرب صورة للمنافي الصعبة، المنفى الذي يتسم لك مخادعاً، فتسكنه مطمئناً وبلفظك غريباً، ولمن لا يعرف، لم تعد بيروت صديقة للغرباء. كُـل هذا، ولا مكان ليكون المرء حزيناً، ألا يختبئ وراء غضب أحياناً كثيرة يكون مفتعلاً، أن يكون فقط حزين مثل الذين يفقدون أحياء لهم، فيأتي الحزن ليرافقهم بعد الفاجعة، ونحن نعدّ الفواجع يوماً بعد يوم، مخيّمات تحترق، عاملات تسقط من الشرفات، أطفالاً تُدفن على عجل، بكاء رجل عجوز على شاشة التلفزيون يقول أشياء مؤلمة، لكن صدى بكائه عالٍ فلا تسمع.

فيأتي خبر انهيار الليرة لينقذني وغيري من افتعال يوميات تروّج ولو عبثاً أننا مازلنا نتصل بالسياق الأكبر والأوسع، وأن الشأن العام يتلهف لتدخلاتنا العظيمة وأفكارنا النيّرة والتي يأكلها سريعاً عن بيروت، والذي يستوطن القاع الذي تسكنه أشباح ماضينا والتي ضاقت بها المدينة في حلّتها الجديدة، فنزلت إلى القاع تحاول عبثاً إغراقنا جميعاً. بيروت تصيق على نفسها، مساحة وبشرراً، وتكبر كثيراً كذكرى فضاء كان يوماً ما لنا كُننا. خبر الانهيار ينقذني من حقيقة إنني أستسهل أن أقود ساعتين إلى الشمال، من أن أذهب من حيّي إلى شارع الحمراء. وينقذني من أن أعيد التفكير بكل هذا الحزن، فأتحصّر لأحزن على الاقتصاد، ولكنني في الحقيقة أجرف مع كُـل هذا الإحساس بالأمان، كُـل تلك الأحزان المتراكمة منذ سنين طويلة، وآخرها أنني لا أحب هذه المدينة وأنها تصيق بي (وبنا).

\*\*\* الليرة : لم توضع في العنوان بسبب القرار في محاسبة أي شخص يروّج لانهيـار الليرة!



مُقدِّمة لانهار اللا\*\*\* (كيف تضيق بنا بيروت)

الكاتب: سارة أبو غزال